

الفصل الثالث

﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾

تعالى الله الواحد الأحد الغني عن الصاحبة والولد أن يكون له ولد، وحاشا لعيسى - عليه السلام - أن يقول أنه الابن المولود لله سبحانه وتعالى؛ وإنما ظهرت هذه المقولة في القرن الرابع فكانت - مع غيرها من المقولات التي لم يعرفها تلاميذ عيسى وحوارييه بل قاوموها في مهداها - بداية خط الابتعاد عن التوحيد الخالص. وفي هذا الفصل سنعرض للشواهد الكثيرة في العهد القديم والأنجيل التي جاء فيها لفظ أو معنى عبارة "ابن الله"، لنبين للقارئ أن هذه العبارة إنما جاءت في هذه النصوص بالمعنى المجازي للبنوة، وأن استخدامها لم يقتصر على عيسى عليه السلام فحسب بل استخدمت أيضًا في الإشارة إلى غيره من الأنبياء كآدم ويعقوب، وكذلك إلى أنصار عيسى وإلى البشر بشكل عام. وليس ثمة مبرر أو نص يفيد خصوصية علاقة عيسى بربه وخالقه، ولا عبرة بمولده بقدرة الله من غير أب، فقد خُلِقَ آدم ابتداء من غير أب ولا أم بقوله تعالى:

﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾.

في العهد القديم:

"وحدث لما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض وولد لهم بنات أن أبناء الله رأوا بنات الناس، ... وبعد ذلك أيضًا إذ دخل بنو الله على بنات الناس..." (تكوين ٦ / ١-٤).

"فتقول لفرعون هكذا يقول الرب: إسرائيل ابني البكر" (خروج ٤ / ٢٢).

"أنتم أولاد للرب إلهكم.." (تثنية ١٤ / ١).

وفي مزامير داود: "إني أخبر من جهة قضاء الرب، قال لي: أنت ابني، أنا اليوم ولدتك" (مزمور ٧ / ٢).

في العهد الجديد:

"لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السماوات" (متى ٥ / ٤٥).

"طوبى لصانعي السلام لأنهم أبناء الله يدعون" (متى ٥ / ٩).

"فليضئ نوركم هذا قدام الناس لكي يروا أعمالكم الحسنة ويمجدوا أباكم الذي في السماوات" (متى ٥ / ١٦).

"احترزوا من أن تصنعوا صدقتكم قدام الناس لكي ينظروكم

وإلا فليس لكم أجر عند أبيكم الذي في السماوات" (متى ١/٦).
"لكي تكون صدقتك في الخفاء؛ فأبوك الذي يرى في الخفاء هو
يجازيك علانية" (متى ٤/٦).

"وأما أنت فمتى صليت فادخل إلى مخدعك وأغلق بابك وصلِّ
إلى أبيك الذي في الخفاء..." (متى ٦/٦).

"فلا تشبهوا بهم لأن أباكم يعلم ما تحتاجون إليه قبل أن
تسألوه" (متى ٨/٦).

"فصلوا أنتم هكذا: أبانا الذي في السماوات، ليتقدس اسمك،
ليأت ملكوتك، لتكون مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض،
خبزنا كفافنا أعطنا اليوم واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضًا
للمذنبين إلينا، ولا تدخلنا في تجربة، لكن نجنا من الشرير لأن لك
الملك والقوة والمجد إلى الأبد آمين" (متى ٦/٩-١٣).

"فإنه إن غفرت للناس زلاتهم يغفر لكم أيضًا أبوك السماوي،
وإن لم تغفروا للناس زلاتهم لا يغفر لكم أبوك أيضًا زلاتكم" (متى
١٤/١٥-١٦).

"وأما أنت فمتى صمت فادهن رأسك واغسل وجهك، لكي
لا تظهر للناس صائمًا بل لأبيك الذي في الخفاء فأبوك الذي يرى في

الخفاء يجازيك علانية" (متى ١٧/٦٠-١٨).

"انظروا إلى طيور السماء إنها لا تزرع ولا تحصد ولا تجمع إلى مخازن، وأبوكم السماوي يقوتها" (متى ٢٦/٦).

"... لأن أباكم السماوي يعلم أنكم تحتاجون إلى هذه كلها" (متى ٣٢/٦).

"لأن لستم أنتم المتكلمين بل روح أبيكم الذي يتكلم فيكم" (متى ١٠/٢٠).

"ولا تدعوا لكم أبا على الأرض لأن أباكم واحد الذي في السماوات" (متى ٢٣/٩).

"ومتى وقفتم تصلون فاغفروا إن كان لكم على أحد شيء لكي يغفر لكم أيضًا أبوكم الذي في السماوات زلاتكم، وإن لم تغفروا أنتم لا يغفر أبوكم الذي في السماوات أيضًا زلاتكم" (مرقس ١١/٢٥-٢٦).

"قال لها يسوع لا تلمسيني لأنني لم أصعد بعد إلى أبي، ولكن اذهبي إلى إخوتي وقولي لهم أني أصعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم" (يوحنا ٢٠/١٧).

"فكونوا رحماء كما أن أباكم أيضًا رحيم" (لوقا ٦/٣٦).

"فقال لهم متى صليتم فقولوا أبانا الذي في السماوات..."
(لوقا ١١ / ٢).

"وأما أنتم فأبوكم يعلم أنكم تحتاجون إلى هذه"
(لوقا ١٢ / ٣٠).

"... بن آدم ابن الله" (لوقا ٣ / ٣٨).

وكما خاطب عيسى قومه على أنهم - مجازيًا - أبناء الله استخدم
نفس التعبير المجازي في حديثه عن نفسه، كما وصف نفسه
بعبارة "ابن الإنسان" كما في النماذج التالية:

"وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بها أحد ولا ملائكة
السماوات إلا أبي وحده" (متى ٢٤ / ٣٦).

"... وأما ابن الإنسان فليس له أين يسند رأسه" (متى ٨ / ٢٠).

"وكما رفع موسى الحية في البرية هكذا ينبغي أن يرفع ابن
الإنسان" (يوحنا ٣ / ١٤).

وقد صحح عيسى - عليه السلام - هذه المفاهيم، وتنبأ بما
سينسب إليه:

"الله هو البداية هو النهاية هو الأول هو الآخر، ولكنه قد أعطى

لكل شيء بداية، وأعطى لكل شيء نهاية، لا أب له، ولا أم له، ولا ولد له، ولا إخوة له، ولا رفقاء أو شركاء له، الله لا جسد له، لا يأكل ولا ينام ولا يموت، ولا يمشي ولا يتحرك، ولكنه حي أزلي، لا شبيه له من بني البشر..." (برنابا ١٧).

"وبعد أن قال عيسى ذلك راح يلطم على وجهه بيديه ويضرب الأرض، ثم يرفع قامته ويقول: ملعون ذلك الذي يضع بين أقوالي أنني ابن الله . وعندئذ انكفأ التلاميذ وكأنهم موتى، وراح عيسى يرفعهم واحدا واحدا، قائلا: فلتَخَفَ اللهَ الآنَ إذا مَنْ عَلَيْنَا أَلَا نَخَافُ في ذلك اليوم (يوم القيامة)" (برنابا ٥٣)

"فأجاب عيسى: وماذا تقولون أنتم فيّ، فأجاب بطرس: إنك المسيح ابن الله، فغضب عيسى غضبا شديدا، وأخذ يؤنبه..." (برنابا ٧٠).

"...وإني أدعوك ربي أن تنزل لعنتك إلى الأبد على كل من يحاول إفساد إنجيلي الذي أعطيتني إياه عندما يكتبون أنني ابن الله، فأنا من الطين والتراب خادم لخدمك بل إنني لم أفكر قط أن أكون خادمك الأول..." (برنابا ٢١٢).

وفي القرآن الكريم قال تعالى:

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا^ط سُبْحَنَهُ^ط بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَنِينُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [البقرة: ١١٦].

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ^ط خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ
ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران: ٥٩].

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ آلِهِنَ^ط وَخَلَقَهُمْ^ط وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ
بِغَيْرِ عِلْمٍ^ط سُبْحَنَهُ^ط وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ بِدِيعِ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ أَنِي يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ
وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنعام: ١٠٠-١٠١].

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ^ط وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ
ابْنُ اللَّهِ^ط ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ
كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَتَلَهُمُ اللَّهُ^ط أَنِّي يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [التوبة: ٣٠].

﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا^ط سُبْحَنَهُ^ط هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي
السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَنِ بِهَذَا^ط
أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [يونس: ٦٨].

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكَبِيرُهُ تَكْبِيرًا﴾ ﴿١١١﴾
[الإسراء: ١١١].

﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ ﴿١١٢﴾ مَا هُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ ﴿١١٣﴾ [الكهف: ٤-٥].

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ۖ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ ﴿١١٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿١١٥﴾ [مريم: ٣٤-٣٥].

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ ﴿١١٦﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ﴿١١٧﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا ﴿١١٨﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿١١٩﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿١٢٠﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿١٢١﴾﴾ ﴿١٢٢﴾ [مريم: ٨٨-٩٣].

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ ﴿١٢٣﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٢٤﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنَ

خَشِيَّتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنْ إِلَهُ مِّنْ دُونِهِ
فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾
[الأنبياء: ٢٦-٢٩].

﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ
كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا
يَصِفُونَ ﴿٣١﴾ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ
﴿٣٢﴾﴾ [المؤمنون: ٩١-٩٢].

﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ
يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٣٣﴾﴾
[الفرقان: ٢].

﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ
﴿٣٥﴾﴾ [الصافات: ١٥١-١٥٢].

﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّا صَطَفَىٰ مِمَّا تَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ
سُبْحَنَهُ ۚ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٦﴾﴾ [الزمر: ٤].

﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ ﴿٣٧﴾ سُبْحَنَ رَبِّ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٣٨﴾﴾
[الزخرف: ٨١-٨٢].

﴿وَأَنَّهُ تَعَلَّى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ ﴿٢﴾
[الجن: ٣].

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ﴿١﴾ ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ ﴿٢﴾ ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ ﴿٣﴾
[الإخلاص: ١-٣].

ولتأكيد التماثل بين خلق عيسى بلا أب وخلق آدم بلا أب أو أم
نسوق الآيات التالية:

﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا
وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ ﴿٧﴾ [الأنبياء: ٩١].

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ ﴿٧﴾ ﴿فَإِذَا
سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ ﴿٧١﴾
[ص: ٧١-٧٢].

﴿إِن مِّثْلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمِثْلِ ٥٩ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ
ثُمَّ قَالَ لَهُ ۖ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿٥٩﴾ [آل عمران: ٥٩].